الدكتور ناهض قديح

بين إبن خلدون وإبن الأزرق

مقدمة:

أخالف الكثير ممن يعتبرون أن العالِم الفرنسي أوغست كونت (1798–1857م)، والعالِم الفرنسي أيضاً إميل دوركايم (1858–1917م)، أنهما، كلٌ بزمانه، مؤسس لعلم الإجتماع. والحقيقة هي أن العالِم العربي إبن خلدون (1332–1406م)، الذي جاء قبل العالِمين الفرنسيين المذكورين بأربعة قرون، هو الذي أسس علم الإجتماع أو "علم العمران" كما ورد عنده. وأعتقد أنهما قد إطلعا، كغيرهما، على مقدمة إبن خلدون التي تضمنت معظم فلسفته في التاريخ والسياسة والإقتصاد والإجتماع والتربية، وإستفادا منها. ولا نبالغ حين نقول: إن الأوروبيين قد إهتموا بالمقدمة أكثر من إهتمامنا بها.

أولاً: فكر إبن خلدون:

لاحظ إبن خلدون أن المجتمع في المغرب العربي، ما يكاد يكوّن دولة، حتى يصطدم بما يؤدي به إلى عدم تماسكه ووحدته، وبالتالي لا يتمكن هذا المجتمع من التطور والتقدم.

من هنا نستطيع القول أن فكر إبن خلدون إنطلق مرتكزاً على ملاحظاته لأزمة تاريخية تتمثل بمشكلة وحدة الدولة، والخطر الذي يهددها ويلاحقها بإستمرار. لذلك فالسؤال العلمي الذي حرّك فكره هو: ما هي أسباب الأزمة؟ كيف يتماسك المجتمع؟ وقد حاولت مقدمته الإجابة عن هذه الأسئلة، والكشف عن القوى الداخلية والخارجية، الإجتماعية والسياسية والإيديولوجية التي تعمل على وحدة المجتمع أو على تفككه وتفسخه.

ثانياً: علم إبن خلدون الجديد:

إذا كان علم الإجتماع هو العلم الذي يدرس الظواهر الإجتماعية ويلاحقها، ويكشف عن الدوافع التي تقف وراءها، والتي تسبب تغيرها وتطورها، ثم يستنتج القواعد والقوانين التي تتحكم بها، يكون إبن خلدون، لا غيره، هو أول من أسس لهذا العلم.

لقد كان إبن خلدون يعي وعياً تاماً أنه يؤسس لعلم جديد، ولذلك قال في الصفحة السادسة من المقدمة ما يلي[1]: "أنشأتُ في التاريخ كتاباً... وأبديتُ فيه لأوليّة الدول والعمران عللاً وأسباباً، وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأمصار.. وهم العرب والبربر.. فهذّبتُ مناحيه تهذيباً.. وسلكتُ في تربيته وتبويبه مسلكاً غريباً، وإخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً، وطريقةً مبتدعة وأسلوباً، وشرحتُ فيه من أحوال العمران والتمدن وما يُعرف في الإجتماع الإنساني من العوارض الذاتية (الظواهر). وما يُمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويُعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك".

وإذا أردنا رصد علوم المقدمة نذكر ما يلي:

- علم البحث في التاريخ (أو قواعد المنهج في علم الإجتماع الإنساني والعمران البشري).
- علم التبيؤ البشري (الإيكولوجيا)، يدرس أثر البيئة الجغرافية في الإنسان.
- علم الإجتماع البدوي (الريفي) والحضري.
- علم الإجتماع السياسي.
- علم الإجتماع الإقتصادي والصناعي.
- علم إجتماع المعرفة.

وبهذا يكون إبن خلدون لم يترك شيئاً في "أوليّة الأجيال والدول وتعاصر الأمم.. وما يعرض في العمران" إلاّ تناوله وبحث فيه.

نستدل من المقدمة أن إبن خلدون قد توصل إلى ما توصل إليه من نتائج، كان من خلال التأمل والإستقراء للواقع بماضيه وحاضره، ومن بعدها إستنتج المبادئ والقوانين. وذلك بعد جهود مضنية قضاها في جمع المعلومات وإستيعابها، وتسجيل أفكاره، وقد تحمّل مشقة السفر لدول كثيرة للإطلاع على مكتباتها وما تحتويه من الكتب النفيسة. وكل هذا يشير إلى صفات باحث جدّي مدقق وعالِم محقق.

ثالثاً: النتائج التي وصل إليها إبن خلدون:

توصل إبن خلدون لآرائه الإجتماعية، والنتائج التي قررها، من خلال دراسته للتاريخ الإسلامي، والوقوف على أسباب نشأة الظواهر وإزدهارها وزوالها. وقد إستنتج قانوناً جعله يحكم حركة المجتمعات الإنسانية وهو قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع وهي:

[1] نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة ثالثة 1967.

1- طور النشأة والتكوين.
2- طور النضج والإكتمال.
3- طور الهرم والشيخوخة.

فالحركة الإجتماعية مستمرة والمجتمعات لا تقف، فحيث ينتهي مجتمع هي بداية لمجتمع آخر. كما درس إبن خلدون ظاهرة العصبية وإعتبرها الدعامة الأساسية للمجتمع القبلي أو البدوي. وحدد العوامل والدوافع التي تؤدي بهذا المجتمع إلى التطور بـ: العصبية، الفضيلة والدعوة الدينية.

ودرس أيضاً المنافذ التي يتطرق منها الفساد إلى الدولة فوجدها: الظلم – الإنفراد بالمجد – إستظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي – الترف والدعة – إلخ...

رابعاً: نقد إبن خلدون:

وجهت بعض الإنتقادات للقوانين والأفكار التي توصل إليها إبن خلدون في شؤون السياسة وقيام الدول، فالكثير منها لا تصدق إلاّ على الأمم التي لاحظها وهي شعوب العرب والبربر، والشعوب التي تشبهها في التكوين، وهذا يعود إلى نقص في إستقراء الظواهر. وصحيح أن الإستقراء الكامل متعذر، لكن يجب أن تكون الظاهرات المدروسة ممثلة لما عداها حتى نقدر إستخلاص قانون عام كما يقول منتقدوه. كما أن إبن خلدون قد بالغ في أثر البيئة الجغرافية في شؤون الإجتماع، وإعتبرها دعامة هامة لمختلف الظواهر الإجتماعية..

إن هذه الإنتقادات لا تنفي مطلقاً أهمية إبن خلدون، فالنظريات التي قدمها جعلته من أعظم المفكرين الإجتماعيين في القرن الرابع عشر وبعده. وكل العلماء الذين أتوا بعده بقرون عديدة لا بد أن يكونوا قد إطلعوا على أفكاره من خلال مقدمته وإستفادوا منها الكثير، مما يجعلنا التأكيد وبقناعة تامة بأنه هو المؤسس الفعلي لعلم الإجتماع قبل دوركايم بأكثر من أربعماية عام.

خامساً: إبن الأزرق:

لعل من أهم الشخصيات الإجتماعية التي جاءت بعد إبن خلدون هي شخصية إبن الأزرق، العالِم الإجتماعي الإسلامي العربي. فهو أبو عبدالله محمد بن علي بن قاسم المعروف بإبن الأزرق، الذي ولد في مالطة عام 831هـ/1426م. ثم إنتقل إلى غرناطة ليأخذ العلم عن علمائها.

تميزت الحقبة التي عاشها إبن الأزرق بتراجع على كل الصعد السياسية والإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية. فقد كانت دول الأندلس تتساقط الواحدة تلو الأخرى بين أيدي الإسبان. وشهد حصار غرناطة (المعقل الأخير)، ووقف على أزمتها وهزيمتها وسقوطها.

سادساً: أهمية إبن الأزرق:

إبن الأزرق واحد من العلماء الإجتماعيين الملقى على عاتقهم مسؤولية دراسة الظواهر الإجتماعية، بشكل دقيق ومنظم، ومحاولة إيجاد القوانين التي تتحكم بهذه الظواهر. وهو حلقة من سلسلة طويلة من الباحثين المسلمين الذين عايشوا أزمات مجتمعاتهم وتأثروا بها، فحاولوا وضع الحلول والقواعد الناجحة التي من شأنها إبعاد المجتمع عن الفساد والتمزق.

تضمن كتابه "بدائع السلك في طبائع المُلك" نظرياته الإجتماعية، وإذا كان هو أول من عرّف بمقدمة إبن خلدون ودرسها دراسة متأنية معمّقة، إستوجبت تلخيصها والتعليق عليها وإضافة ما رآه ضرورياً، فهذا لا يعني أن غيره لم يحاول، فقد عرّف تقي الدين المقريزي، تلميذ إبن خلدون، وإبن حجر العسقلاني، الأول مدح المقدمة والثاني إنتقدها، إلاّ أن الظاهر أنهما لم يدرساها دراسة معمقة وتلخيصها كما فعل إبن الأزرق.

تكمن أهمية إبن الأزرق بدمجه علم السياسة بعلم الأخلاق؛ فقد ركز على الجانب الأخلاقي الذي فرضته الشريعة الإسلامية لصالح المجتمعات وكل البشر والدول. ولذلك كان رأيه أن لا إستمرار لدولة أو حاكم أو رعية بدون هذه الأخلاقيات. والحقيقة أن السياسة والأخلاق شغلا بال الكثير من المفكرين والعلماء المسلمين قبل إبن الأزرق، ومن هؤلاء: إبن أبي الربيع، الفارابي، الماوردي، الطرطوشي، إبن خلدون وغيرهم.. إلاّ أنهم لم يدمجوا علم الأخلاق بعلم السياسة لوضع نظرية متكاملة كما فعل إبن الأزرق، الذي أضاف إلى مقدمة إبن خلدون كثيراً من الأخلاقيات والأحكام الشرعية والمثل، التي رآها ضرورية بإعتبارها سلوك للإنسان الذي لا يجوز التخلي عنه أبداً.

سابعاً: مصادر إبن الأزرق:

إهتم إبن الأزرق بفكر إبن خلدون وإبن رضوان السياسية والإجتماعية والإقتصادية، وبطائفة طويلة من العلماء والفقهاء والمفكرين وبنظرياتهم الأخلاقية المثالية أمثال: الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين"، والشاطبي في كتابه "الإعتصام"، وإبن عربي في "أحكام القرآن"، والخطابي في "العزلة"، وإبن فرحون في "تبصرة الأحكام"، وأحمد بن الداية في "العهود اليونانية" الذي نشر في الجزائر تحت إسم: "الفلسفة السياسية

عند العرب"، وإبن الحاج في "المدخل"، والماوردي في "الأحكام السلطانية" و"أدب الدنيا والدين" وقوانين الوزارة وسياسة الملك" و"أدب الوزير" و"أدب القاضي" وغيرهم كثير.

نستنتج أن الذي شغل بال إبن الأزرق هو إستعادة المثل الأخلاقية التي سادت المجتمع الإسلامي الأول في عهد الرسول(ص) والخلفاء الراشدين، لإيمانه بأن الدول تستمر عندما يقوم كل واحد من أفراد المجتمع بواجباته وبما يطلب منه. فإبن الأزرق يريد تطبيق الشريعة بكل أحكامها، إبتداءً من رأس الهرم (الحاكم) حتى قاعدته. كما يطلب من المسؤول الحاكم أن يتحلى بصفات حميدة وأخلاق حسنة، تبعده عن الفساد وظلم الرعية وجورها. يريده أن يتصرف بوحي من الشريعة في كل أحكامه وأعماله ومقرراته.

ثامناً: جديد إبن الأزرق:

قلنا إن إبن الأزرق لخص مقدمة إبن خلدون فقال: بضرورة المجتمع والسلطة والسلطان، والهدف من وجود الحاكم. إلاّ أنه قال بإمكانية تعدد الحاكم، أي تنصيب أكثر من إمام عند الضرورة (كبر الدولة وإتساع رقعتها...).

وقسم إبن الأزرق الإجتماع البشري، كما قسمه إبن خلدون إلى: بدوي وحضري. وقد عارض إبن الأزرق ما قرره إبن خلدون بالنسبة لعمر الدولة، وإنتقده لأنه ادعى أن أعمار الدول لا تعدو – في الغالب – عمر ثلاثة أجيال، والجيل عمر شخص واحد على المتوسط، وهو أربعون سنة، حيث رد إبن الأزرق على ذلك بقوله: تقدم لإبن خلدون قبل هذا أن طول أمد الدولة على نسبة القائمين بها في القلّة والكثرة. ونستخلص رأي إبن الأزرق في هذا المجال حيث يقرر أن الدولة هي سلطان ورعية، حاكم وشعب، فإن قام الحاكم بواجباته خير قيام وبما أملته عليه الشريعة، وقام الشعب من ناحيته بما فرض عليه من طاعة حاكمه، وتنفيذ ما طلبته الشريعة من كل فرد والإلتزام بتقوى الله الذي يتمثل بالإبتعاد عن المنكرات والمعاصي التي نهت الشريعة عنها، ثم القيام بالأعمال الصالحة، وترك ما يفسد المجتمع أو يضرّ به، منطلقاً من أن الأخلاق هي السبيل لتأمين تماسك المجتمع وإستقامته. ويعتقد إبن الأزرق أنه إذا حدث هذا، سيحصل التوافق والإنسجام بين الحاكم والرعية، وعندها لا يقوم الصراع بينهما وتستمر الدول.

الخلاصة:

بعد هذه المقارنة السريعة بين فكر إبن خلدون ومنطلقاته وما قام به إبن الأزرق بعده، نستنتج أن مذهب إبن الأزرق الإجتماعي هذا لم يشكل منعطفاً في الفكر العربي الإسلامي، ولا تحولاً في مسار هذا الفكر، إنما هو في السياق العام له وضمن إطاره.

لقد إعتمد إبن الأزرق على مصادر ساعدته في إيصال فكرته، وأكثر من النصوص التي نظمها ونسقها ولخصها بشكل يدعو للإعجاب والتقدير. وأكثر أيضاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال الحكماء، التي تؤكد على الأخلاقيات والمثل العليا.

يبقى أن إبن الأزرق سيظل واحداً من العلماء الإجتماعيين، الملقى على عاتقهم مسؤولية دراسة الظواهر الإجتماعية بشكل هادف واع، الذي درس مقدمة إبن خلدون، وإستوعب الفكر الإجتماعي فيها دراسة متأنية وأضاف إليها فكراً أخلاقياً إستخرجه من كتاب الله وأحاديث رسوله وكلام الحكماء.

ويبقى العلامة إبن خلدون متربعاً على قمة الفكر الإجتماعي، والذي أثر في علماء الإجتماع الذين أتوا من بعده. وما زلنا للآن نكتشف في مقدمته ما هو جدير بالبحث والدراسة.